السَيّد المُبَارِز

لقد آن لنا أن نتجه إلى أعداء العرب فى الشمال، وقد ذكرنا آنفًا ما كان من أمر «بلاى»، وكيف أنه جمع ما بقى من القوط فى كهفه الذى لا ينال، ومعقله بصخرة جبال (أستورياس)، وكيف أن هذه الفئة القليلة اجتازت بعد قليل حدودها، وشجعها على التحدى والنضال ما شجر من الخلاف بين قبائل البربر، الذى انتهى بهزيمتهم عند الحدود الشمالية للدولة العربية.

جدد شىء من ذلك الحياة فى هذه الفئة وقوى من عزمها، فاستعادت بالتدريج أكثر الأراضى التى فى شمال جبال وادى الرمل، وأسست مملكة ليون، ومقاطعة قشتالة، وكانت مملكة نافار تبعد نحو الشرق عند سفح جبال ألبرت (البرانس)، وذكرنا أيضًا كيف أن هذه الممالك المسيحية كانت فى حرب مستمرة مع جيرانها المسلمين، وأنه كان فى باب الظن أن تكون هذه الحروب خطرًا على العرب، لولا ذلك الانقسام المستمر والخلف الدائم بين المسيحيين، مما حمل بعض ملوكهم أن يلتزم الحيدة ويتجنب القتال، وكان من السهل اليسير على المسلمين أن يصونوا دولتهم مهيبة عزيزة الجانب، لو بقيت مملكة قرطبة قوية غير متفرقة الأهواء.

ولكن حينما سقطت قرطبة، وأصبحت الأندلس نهبًا مقسمًا

بين ملوك الطوائف الذين لم يفكروا إلا فى أنفسهم أولا، ثم - إذا دعت الحال فى المملكة الإسلامية - تجرأ النصارى وتمكنوا من أن يستعيدوا من العرب عددًا غير قليل من البلدان، وقد شهدنا كيف أن النصارى زحفوا على أرض المسلمين بجيوشهم المظفرة، وضربوا الإتاوات على أعاظم ملوكهم، حينما ازداد الاضطراب وعمت الفوضى فى القرن الحادى عشر، وأصبح لكل مدينة دولة ولكل دولة أمير ووزراء ... فى هذا الوقت جمع فرديناند الأول القسم الأعظم من الشمال تحت رايته، فألف بين الولايتين المتعاديتين؛ ليون، وقشتالة، وأضاف إلى ملكه: أستورياس، وغاليسية، وكان فى هذا الحين أقوى ملك بإسبانيا جميعها، وقد ضم إلى مملكته مدن البرتغال: لورميجو، وبازو، وقلمرية، وأخذ الإتاوات من ملوك سرقسطة، وطليطلة، وبطليوس، وإشبيلية.

نعم إن رأيه السقيم فى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة وبنتيه جر على الشمال بعد موته ويلات متصلة الحلقات من الحروب الأهلية، ولكن ألفونسو السادس «الشجاع» تمكن فى النهاية من ضم أشتات المملكة فانتعشت القوى المسيحية، وأصبح تغلبها على أعدائها من الحتم المحقق.

ولم يمنع المسيحيين من قهر الأندلس واستردادها فى هذا الحين الذى ضعفت فيه العرب إلا ما كان يبعث به إليهم ملوك الطوائف من الرشا التى تأبى على الحصر ليشتروا بها كفهم أو عونهم،

وإلا مـا كان يظهر فى الأفق البعيد من جيوش المرابطين، وعلى أية حال لم يكن ملوك الطوائف حكامًا مستقلين، لأنهم وقعوا بين شقى رحا: من الخوف من ألفونسـو، ثم من الخوف مما هو أعظم خطرًا من ألفونسـو، وهو تغلب حلفائهـم المرابطين، ولكنهم فى النهاية اضطروا إلى اللجوء إلى المرابطين.

ويظهر لنا فى هذا الوقت تدخل النصارى فى أكثر شئون المسلمين السياسـية، ونرى التحالف بين الفريقين مشتبك العرا، وأن كثيرًا من جنـود النصارى المرتزقة كانوا ينضمـون إلى جيوش العرب فى حروب مدمـرة للولايات المسـيحية، وأن كثيرًا مـن العرب كانوا يعينون جيوش النصارى على إخوانهم المسلمين...

وقـد نخطئ خطأ بالغًـا إذا قدرنا لجنود ليون وقشـتالة منزلة تقـرب من المثل الأعلى للبطولة والفروسـية، وأكبر فى باب الخطأ أن نتخيلهـم رجالا مهذبين مثقفين. فإن نصارى الشـمال كانوا من كل وجـه على النقيض من منافسـيهم العـرب، لأن العرب - وإن قدموا الأندلس فى جفوة طبائع القبائل وخشونتها - رقت أخلاقهم بالاختـلاط بالأندلسـيين وبميلهـم الطبيعى إلى المـرح والتطرف، فوصلـوا إلى قمة المدنيـة وأغرموا بالشـعر والأدب وتجردوا لطلب العلـم، وأحبوا فوق ذلـك أن يتمتعوا بكل لذائـذ الحياة. وقد كان ذوقهم العقلى والأدبى مرهفًا دقيقًا، وكان لهم ذلك الإحساس الذى لا يشعر به من نشأ نشأة سامية فى العلم والأدب، وقد كانوا واسعى

التصور خياليين شـعريين مفكرين، يمنحون من المال على مقطوعة شـعرية رائعة، ما يكفى للإنفـاق على فرقة من الجنـود. وكانوا ينظرون باحتقار إلى أقوى ملوكهم وأشدهم بطشًا إذا لم يكن شاعرًا، أو لم يوهب له ذوق فهم الفكاهة الشـعرية والبلاغة العربية. ومنح هؤلاء القوم البارعون اسـتعدادًا طبيعيًّا فى الموسـيقى، والخطابة، ودقائق العلوم، والنقد، وإدراك التوريات البعيدة التى نعدها اليوم من ميزات الأمة الفرنسية.

أما نصارى الشمال، فكانوا على الخلاف من ذلك بقدر ما يتصور العقل من خلاف، كانوا فى بداوة الأمم الناشئة على الرغم من أنهم أخـلاف أمة قديمة، فكانوا جفاة غـير مثقفين، وقليل من أمرائهم مـن كان لـه حظ من مبادئ العلـم، وكانوا من الفقر وعسـر الحال أعجـز من أن يتمتعوا بفنون الرفه التـى يتمتع بها أمراء العرب، غـير أنهم كانوا رجال حرب وجلاد، لا يقل نزوعهم إلى القتال عن نزوع أعدائهم المسـلمين، وقد يفوقون هؤلاء فى استعدادهم للنضال واحتمالهم الحرب الطويلة الأمد، وجرأتهم اليائسة المستميتة.

لقد كانوا رجال سـيف ليس غير، وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة إلى خدمة أى إنسـان كيفما كان، فكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أغلى ثمن، لأنهم يحاربون ليعيشوا، وتاريخ القرن الحادى عشـر لإسـبانيا مملوء بالوقائع التى حارب فيهـا أبطال النصارى تحت راية المسـلمين، ولكن ليس بين هؤلاء الأبطال من نال شهرة السيد بطل إسبانيا.

هذا السيد هو لذريق البيفارى، وقد سماه أتباعه من العرب بالسيد، وكان من أسمائه أيضًا: الكمبيدور ومعناها: البطل، أو المبارز المتحدى، لأن شجاعته الفائقة فى الحروب جعلته المبارز المشهود له بالسبق فى المبارزات التى كانت تسبق التحام الجيشين.

ولم يكن أحد أبعد شهرة وأكثر انتصارًا فى المبارزات من لذريق، أو سيدى القنبطور «كما كان يحلو لأحد قدامى المؤرخين أن يدعوه» ومن السهل الهين أن نميز الصحيح مما شاع من الروايات عن ضروب شجاعة السيد وإقدامه، التى امتلأ بها تاريخه العجيب.

وأكثر ما حبب السيد إلى نفوس القشتاليين، عزوفه عن طاعة الملك ألفونسو وإن عد ذلك مدون سيرته عيبًا يحط من بطولته، فإن صاحب هذه السيرة، أو المعين على جمعها، وهو ألفونسو العالم، لم يستطع أن يتجاوز عن صلف السيد وتحديه لسلفه ألفونسو السادس. لذلك نلحظ فى ترجمة سوذى[1] لسيرة السيد - وهى غنية باستشهادات كثيرة من قصيدة السيد وغيرها - وقوفًا مقصودًا عن الاسترسال فى الإطراء، وكبحًا فجائيًا لجماح الأناشيد والقصص الموغلة فى الملق والمديح، وبهذه السيرة إسهاب كثير فيما لا يشرف السيد، أو يربأ به عن المذمة، غير أنها تصور أخلاق البطولة الحقة بما فيها من خير وشر، وتعرض صورة شائقة عجيبة لهذا العصر المضطرب، ومثالا رائعًا لهذا الفارس المعلم بين الفرسان الإسبانيين.

---

(١) روبرت سوذى: شاعر، كاتب، أديب إنجليزى، مات سنة ١٨٤٣.

ولو قصدنا إلى سرد قصة السيد كاملة لملأنا بها مجلدًا ضخمًا، لذلك نرى من الخير أن نقصرعنان القلم على اقتطاف بعض فقرات من سيرته. ولسنا نعلم شيئًا عن بطلنا فى أيام صباه. والذى نعلمه عنه: أن أول ورود لاسمه فى التاريخ كان فى سنة ١٠٦٤ حينما فاز بلقب المبارز، لانتصاره فى مبارزة على أحد فرسان نافار، وأنه عين إثر ذلك قائدًا لجنود قشتالة، وكان فوق العشرين بقليل، ثم نعلم أنه ساعد سانشو أمير قشتالة على قهر أخيه، بمفاجأة فيها كثير من معانى الغدر والخيانة، وإن عدت من الحيل الحربية فى هذا الزمن الجافى الخشن. وبعد أن قتل بليدو سانشو عند أسوار زمورة، لحق السيد بخدمة خلفه، وهو ألفونسو نفسه، الذى كان السيد سببًا فى نفيه بعد انتصار أخيه سانشو عليه. وقد أحسن ألفونسو أول الأمر لقاء فارس قشتالة المظفر فى قصره، وزوجه بنت عمه، ولكن حساد السيد ملئوا صدر ألفونسو بالسخائم والحقد عليه، ولم يكن منه سليم دواعى الصدر، فنفاه من مملكته سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ وتقص علينا سيرته ما أصابه بعد ذلك فتقول:

«وبعث السيد إلى أصحابه وأقاربه وخدمه، وأخبرهم بما آل إليه حاله، وما كان من أمر الملك بنفيه، ثم سأل عمن يريد منهم أن يتبعه فى منفاه، وعمن يريد منهم أن يقيم، فاتجه إليه الفارفانز «البرهانس» وهو من أبناء عمومته، قائلًا: «إننا أيها السيد سنتبعك جميعًا حيثما ذهبت، ولن نخفر لك عهدًا ... إننا سنسير معك فى

البدو وفى الحضر، وسنبذل فى خدمتك بغالنا، وخيولنا، وأموالنا، وثيابنا إن شئت، وسنبقى لك أوفياء مخلصين مدى الحياة». وأيد جميعهم مقالة الفارفانز فشكر لهم السيد عطفهم ومحبتهم ثم قال: إن الفلك يدور، وإن الأيام قد تمكنه من توفية جزائهم.

«وعند رحيله أخذ يتلفت إلى داره، فغلبه الدمع وصاح: هذا من عمل أعدائى، فالحمد لله على السراء والضراء، وزاد من شجونه أن رأى بهوه قفرًا، وصناديقه مبعثرة، وأبوابه مفتحة، ومشاجبه ملقاة على الأرض، ومقاعد فناء الدار وقد رفعت، والقصور التى كانت تعلو قممها وقد طارت، ثم اتجه إلى الشرق وسجد وهو يتمتم: مريم ... مريم ... أيتها الأم المقدسة ... ويا أيها القديسون جميعًا، توسلوا إلى ربى أن يهب لى القوة لاستئصال الوثنيين، وأن يمنحنى من غنائمهم ما يقدرنى على مكافأة إخوانى هؤلاء، ومكافأة كل من يتبعنى ويعيننى، ثم دعا الفارفانز وقال له: يا ابن العم ... إن الأمة المسكينة لم يكن لها يد فيما رزأنا به الملك، فاعمل على ألا يصاب أحد منها بسوء فى أثناء الطريق ... ثم دعا بفرسه، وكانت امرأة عجوز واقفة عند باب دارها، فمذ رأته أجهشت بالبكاء وقالت: ارحل على الطائر الميمون أيها السيد، وانهب من الغنائم ما شئت، وبعد سماع هذه الوصية الغالية، ركب جواده وقال: أيها الأصدقاء. إننا سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوجين

بالشـرف، فائزين بالغنم الكثير. وعند رحيلهم من بيفار[1]، رأوا غرابًا سانحًا، فلما وصلوا إلى برغش رأوا غرابًا بارحًا.

«ولما دخل برغش كان برفقته ستون رجلا، فهرع الرجال والنساء لمشـاهدته عن بعد وهم حذرون، وأطل كثير من منافذ دورهم باكين محسـورين، وصاحوا بصوت واحد: سـبحان الله!! سبحان الله!! يا له من خادم كريم لو ظفر بسـيد كريـم!! وتمنوا أن يضيفوه فى دورهـم. ولكنهم لم يجرءوا، لأن ألفونسـو فى حدة غضبه أرسـل رسـائل إلى أهل برغش يحذرهم فيها من إيواء السـيد، وينذر من يخالفه بمصادرة أمواله وسمل عينيه، واسـتولى الحزن والهم على النصارى حينما شـاهدوا هـذه المرزأة من بعيـد، وأخذوا يختفون حينما قرب السـيد منهم، لأنهم كانوا يحذرون مشافهته والقرب منه. فذهب السـيد إلى «بوسـادا» وهو الخان الـذى كان ينزل به، فرأى صاحب الخان قد أسـرع بإغـلاق بابه خوفًا من الملك، وعندما صاح رجاله بأبى المثوى أن يفتح الباب لم يجبهم أحد، فقرب السيد من الخان، وخلع قدمه من الـركاب، وضرب الباب بها فلم يفتح، لأنـه كان وثيق الغلـق، وعندئذ خرجت فتاة صغيرة فى التاسـعة مـن إحدى الدور وقالت: أيها السـيد ... لقد نهانا الملك أن نؤويك فلم نسـتطع أن نفتح أبوابنا لاسـتقبالك، ولو فعلنـا لفقدنا دورنا،

(١) اسم قصر السيد.

وأموالنـا، وأعيننا التى فى رءوسـنا ... أيها السـيد، إن مصيبتنا بإيوائك لن تساعدك، ولكن الله وجميع القديسين معك.

«وعندما علم السـيد بما أمـر الملك به، لوى عنـان جواده نحو كنيسـة سـنت مارى، وهناك ترجل وسـجد، وصلى بقلب خافق يفيض رهبة وخشـوعًا، ثم ركب ثانية وغادر المدينة. حتى إذا كان غير بعيد من نهر أرلنسون عرّس ودق أطنابه فوق الرمال، لأن أحدًا لم يقبل أن يضيفه، فأقام بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقيما بين الجبال التى خلت من دبيب الحياة.

«وأذنت الديكة بأصواتها الندية، وبدت تباشـير الصباح عندما وصل السـيد إلى دير سـنت بدرو، وكان إذ ذاك راهب الدير الدون سسـبيوتو يؤدى صلاة الفجر، ومعه الدونة شيمانة زوج السيد فى خمـس من وصائفها النبيلات، يدعون الله والقديس بطرس أن يعين السيد ويشـد أزره، فلما سمع الراهب صوت البطل لدى الباب كان سروره عظيما، فخرج هو ومن معه إليه يحملون المشاعل والشموع، وحمـد الراهب الله أن متعه بلقائه، وأخذ السـيد يقص عليه كل ما حدث له، وما رماه به الملك من النفى والاضطهاد، ثم منحه لنفسه خمسـين دينارًا، وأعطاه مائة دينار لزوجـه وبنتيها وقال: أيها الراهب. إنى أكل إلى رعايتك بنتىّ هاتين، بعد أن أتركهما ورائى، فاخفض لهما جناح الرحمة، واعطف على زوجى ووصيفاتها، فإذا نفِد هذا المال فأنفق عليهن سخيًّا مبسوط اليد، فإن كل دينار يصرف

عليهم سيرد إلى الدير أربعة دنانير، فوعده الراهب بأنه سيفعل ما يؤمر بمشيئة الله، ثم تقدمت شيمانة إلى زوجها وهى تحمل طفلتيها، كل طفلة فوق ذراع، وجثت أمامه على ركبتيها وهى تبكى بكاءً شديدًا، وتومئ إلى يديه بالتقبيل، ثم قالت: انظر الآن كيف نبت بك بلادك وشمت بك الأعداء والحاسدون، وانظر الآن ما صار إليه أمرى وأمر بنتىّ الصغيرتين، وكيف حكم علينا بالفراق ونحن أحياء؟! أقسم عليك بحق مريم إلا ما أخبرتنى عما أفعل!! فحمل السيد طفلتيه فوق ذراعيه وضمهما إلى قلبه، وانتحب طويلا، لأنه كان شديد الحب لهما، وقال: إنى سأحيا بمشيئة الله ومشيئة السيدة مريم حتى أزوج ابنتى هاتين، وحتى أقوم بشرف خدمتك أيتها الزوج النبيلة التى أحببتها كنفسى. وأقاموا فى هذا الدير وليمة للبطل الكريم، وصدحت أجراس الدير برنات البهجة والسرور.

ومضت ستة أيام من المهلة التى منحها ألفونسو إياه لمغادرة البلاد، وبقى منها ثلاثة.

«وكان ألفونسو صلب العود عنيدًا، فلو أنه بقى فى المملكة بعد انتهاء المهلة يومًا واحدًا، ما استطاع أن ينقذه من براثنه ذهب ولا فضة، وفى هذا اليوم أولم مع أصحابه، ثم وزع عليهم فى المساء كل ما يملك، فأعطى كل رجل على قدر منزلته، ثم أمرهم أن يتلاقوا بالدير عند صلاة الفجر ليرحلوا معًا، وقبل أن يصيح الديك كانوا قد

أخذوا أهبتهم واجتمعوا بالدير، فأدى بهم الراهب الصلاة حتى إذا انفتلوا منها أعدوا خيلهم للرحيل، وهنا أخذ السيد يعانق شيمانة وبنتيه ويدعو لهن، وكان فراقه لهن أشبه بنزع الظفر من لحم الأنامل، وعند مغادرة الدير طفق يبكي ويكثر من التلفت وترديد الزفرات، فقرب منه الفارفانز وقال: أين شجاعتك أيها السيد؟! لقد ولدت سعيد الطالع مجدودًا!! فكر الآن في سفرنا، واعلم أن هذه الأحزان ستنقلب في يوم سعادة وسرورًا».

عرض السيد نفسه على أمير سرقسطة[1]، وكان أقوى ملوك المسلمين في الشمال، فرحب به وبرجاله وضمهم إلى جيشه.

ومن هناك قاد السيد أتباعه إلى غارة بأراغون، وكانوا قد شغفوا به ورأوا الغنم في متابعته، وكان سريع الضربة في هذه الغارة خفيف الخطا، حتى لقد قطع مسافات بعيدة في خمسة أيام، وفر بغنائمه قبل أن يشعر النصارى بمقدمه، ثم قاد العرب لمحاربة كونت برشلونة ففاز فوزًا مبينًا، حتى اضطر الكونت إلى محالفته.

وأعظم أعمال السيد تغلبه على بلنسية. وقصة ذلك: أن أمير سرقسطة ندبه لحماية أمير بلنسية، بعد أن اضطرب بها حبل السياسة، وتفاقمت الأمور، فدخل المدينة أول ما دخلها مسالمًا. والسيرة تقول:

---

(١) هو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر.

«فذهب السيد إلى بلنسية، واستقبله الأمير يحيى بن ذى النون أحسن استقبال، وعقد معه ميثاقًا تعهد فيه: أن يمنحه كل أسبوع أربعة آلاف مرابطى[1] لقاء إخضاع أهل الحصن لطاعته، حتى يؤدوا إليه الإتاوة التى كانوا يؤدونها لأسلافه من أمراء بلنسية، وعلى أن يحميه السيد من العرب والنصارى، وأن يتخذ بلنسية منزلا له ومقامًا، وأن يجلب إليها ما يسطو عليه من الغنائم لبيعه بها، وأن يتخذ بها أهراءه، وقد دون هذا الميثاق حتى يكون حجة لكليهما، فأرسل السيد إلى من بالحصن يأمرهم أن يؤدوا الإتاوة إلى أمير بلنسية كما كانوا يفعلون من قبل، فقبلوا طائعين وتسابقوا إلى مرضاته».

ومذ ظفر السيد بهذا المنصب، شرع يقود جيوشه المظفرة إلى الممالك المصاقبة «فحارب دانية، وشاطبة، وقام بها فى أثناء الشتاء مدمرًا عاتيًا فلم يدع حجرًا على حجر من أريولة إلى شاطبة، وكان يبيع غنائمه وأسراه ببلنسية».

وفقد السيد سيطرته على بلنسية حينًا من الدهر فى أثناء هذه الحروب والغارات: ذلك أن ألفونسو سنة ١٠٨٩ م / ٤٨٢ هـ عاد فرضى عنه ومنحه حصونًا، وأقره على جميع ما استولى عليه فى غزواته، وبهذا الإقرار أصبح السيد أميرًا مستقلا، غير أنه لم يمض من الزمن إلا قليل حتى عاد الملك إلى الشك فى أمره والأخذ فيه بالشبهة،

---

(١) أصغر قطعة نحاسية بإسبانيا، وهى أقل من الفارذنج الذى يقرب من المليم، وفى الحلل السندسية: أن أمير بلنسية كان يمنحه عشرة آلاف دينار فى كل شهر.

فاقتنص فرصة غيبته بالشمال وأسرع فحاصر بلنسية. وحينما علم الكمبيدور بذلك اشتعل غضبًا، ووجه انتقامه إلى مقاطعات ألفونسو، فدمر بالسيف والنار نافار، وقلهرة، وترك حصن لوكرنى دكًا. وجاء فى بعض المدونات اللاتينية القديمة: «وعاث فى الأرض جبارًا نهابًا ثم غادرها قفرًا يبابًا، بعد أن احتجن خيراتها» فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن بلنسية، وعاد مسرعًا لإنقاذ مملكته، ولكن السيد بعد أن نال مأربه من غزو ممالك ألفونسو، سلك سبيلا أخرى إلى بلنسية، فوجد أبوابها مغلقة دونه.

ومن ذلك الحين ابتدأ ذلك الحصار التاريخى الذى لبث تسعة أشهر، لاقى فيها أهل بلنسية الشدائد والمحن، فاشتد بهم الجوع والظمأ، كل هذا والسيد ورجاله محيطون بأسوارهم بقلوب أشد صلابة من هذه الأسوار، لم تنفذ إليها الرحمة، ولم تعرف فى الحرب لينًا ولا رفقًا، وآض أهل بلنسية فى هذا الحصار القاتل أشباحًا هزيلة، خائرة القوى، أخذ منها السغب وأنهكتها المخمصة، وكان إذا وثب أحدهم من السور أو ألقاه أهل المدينة لأنه لا غناء فيه ولا معونة عنده، تلقفته سيوف أتباع السيد، أو أبقت عليه فبيع كما تباع العبيد، ويقول مؤرخو العرب: إن السيد أحرق كثيرًا من هؤلاء أحياء. وتوجز سيرته فى وصف هذا الحصار فتقول ولم يبق بالمدينة طعام يباع، وأصبح الناس بها يترنحون بين أمواج الموت، وكثير منهم من سقط فى الطرق ميتًا».

وسلمت المدينة فى يونيه سنة ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ حين يئست من المقاومة، وحين لم يبق لها فى قوس الصبر منزع، ووقف السيد مرة أخرى فوق حصونها وأسوارها مؤزرًا منتصرًا، ثم أملى على أهل بلنسية شروطًا قاسية، وطرد كثيرًا منهم من المدينة لتخلو أمكنتهم للقشتاليين، وفى الحق إن السيد كان جافيًا فى معاملة المغلوبين أشد الجفوة ناكثا بعهده. ولكنه لم يدنس انتصاره بحصد الأرواح وذبح من فى المدينة كما كان يفعل كثير فى هذا الزمان، نعم، إن من السكان من فقدوا ما يملكون، ولكنهم جميعًا نجوا بحياتهم، ولم يقتل إلا قوادهم[1]. وأرسل السيد يستقدم زوجه وبنتيه من الدير، ودعا بنفسه ملكًا على بلنسية، وحاميًا للممالك حولها، وضرب إتاوات فادحة على جيرانه حتى بلغ دخله فى السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين ألف دينار، ووصل إلى عشرة آلاف من ابن رزين صاحب السهلة، ومثلها من أمير البنت، وإلى ستة آلاف من أمير مربيطر، وهكذا...

وخيلت له الأحلام أن يسترد الأندلس كلها، فقد قال: إن لذريق خسر إسبانيا وسيعيدها لذريق آخر. وحين حاربه المرابطون شتت جموعهم، وبدد شملهم فى معركة حامية.

ولكن الحظوظ تتقلب فى الحروب، وكما تكون الأيام لك تكون عليك، فقد هزم المرابطون جنود السيد فى النهاية، فمات حزنًا وغمًّا

(١) لأنه بعد أن عاهد القاضى أبا أحمد بن جحاف حاكم بلنسية أحرقه بالنار.

فى يوليه سنة ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ وحين مات حنطوا جثته وأقاموا بجانبها حراسًا، ثم أنفذوا ما أوصى به - كما تقول الأشعار القصصية - فأقعدوه على جواده الكريم بابيكا، وأحكموا شدة السرج، فجلس عليه معتدل القامة، لم يظهر بوجهه أثر الموت، وقد أبرقت عيناه الشهلاوان، وأرسلت لحيته إلى صدره، وقبضت يده على سيفه الأمين «تيزونة» فبدا كأنه حى لا يتطرق فى ذلك شك لرائيه، ثم أخذوا بلجام فرسه وخرجوا من المدينة يتقدمهم بيرو برميودز وهو يحمل علم السيد ومعه خمسمائة فارس لحراسته، وسارت خلفه شيمانة فى صويحباتها وحاشيتها، فأخذوا طريقهم بين العرب المحاصرين للمدينة، ويمموا شطر قشتالة، وتركوا العرب فى دهشة وعجب من هذا الرحيل الغريب، لأنه لم يخطر لهم ببال أن السيد ميت لا يرجى.

ولما وصلوا إلى دير سانت بدور، أجلسوا السيد على كرسى من العاج إلى جانب المذبح تحت ظلة وضعوا فوقها رنوك قشتالة، وليون، ونافار، وأراغون، ورنك الكمبيدور نفسه، وبقى السيد نفسه جالسًا إلى جانب المذبح عشرسنين، كان وجهه فى أثنائها هادئًا نبيلا، حتى إذا تغلبت آثار الموت على الصناعة والتحنيط دفنوه أمام المذبح، وأبقوه فى قبره جالسًا كما كان على الكرسى العاجى، مرتديًا ملابسه الملكية وسيفه تيزونة فى يده، ولا تزال درقة السيد المحفورة بالزخارف وعلم انتصاره معلقَيْن على قبره يفيضان أسى وحزنًا.